الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقد ضحينا فى سبيل استكمال قصة اسپارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحدة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونان الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية فى بحر إيجة وفى جزائر أيونيان ، وإن هذه هى التى أنشأت فى كثير من الحالات المستعمرات التى سنصف حياتها فى هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحى بما حدث من انقلاب مربك فى سياق الحوادث السوى أعظم شأناً من المدن التى أنشأتها وسبقتها فى ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التى نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوريين الفاتحين وحاربوا حرب المستيئسين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التى جعلت لهم قبل مرثون بزمن طويل المقام الأول فى العـــالم الغربى ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شىء فى تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

فى جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متنقلا ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التى أثارت الموجات اليونانية المتتابعة التى طغت على جزائر بحر إيجة وعلى السواحل الغربية للقارة الأسيوية كانت غزوات الدوريين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الموطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التى بعثت على هذه الهجرة ما فى الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ؛ فكان المغلوبون يختارون النفى من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقى على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا فى حرب طروادة فضلوا البقاء فى آسية ؛ واستقر غيرهم فى جزائر بحر إيجة حباً فى المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التى كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التى تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد ثلت وأن زوجاتهم قد احتضنهن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة فى خارج بلادهم[٢] . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصيلة ، كما عاد صنوه على أوربا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان وللمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعى ؛ وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصيلة ، ومستودعات حصينة فى مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار فى آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول بيس Pais : « لعل أروع حوادث التاريخ اليونانى كله وأشدها إثارة للنفس هو استعمارهم فى بداية أمره ! » .

والفنون ، وأساليب الحياة ، والأفكار ؛ من أقوى العوامل فى نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات فى خمسة خطوط رئيسية — إيولية ، أيونية ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . . وبدأت أقدمها فى الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصيلة ، وهى التى لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبوئوتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثانى عشر والحادى عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الإيولى . ويبدأ الخط الثانى من خطوط الهجرة فى البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة المرقلين » ، واستقر بعضهم فى أتكا والبعض الآخر فى عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سكلديس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا فى غربى آسية الصغرى المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الأيونى الاثنى عشرى Ionian Dadecapolis . وسار فى الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا فى جزائر سكلديس ، وفتحوا كريت وسيرينى ، وأنشأوا حلفاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع فى مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروپنتس (بحر مرمرة) والبحر اليكسينى (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التى أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وآسپانيا .

وليس فى وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات فى سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التى دامت مائة عام ، أو كيف ذللت ، إلا إذا كان عُطرفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين

فى تاريخنا الاستعمارى . لقد كان فى مغادرة الأرض التى خلعت عليها شعائر القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتى يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج إلى أصقاع غريبة لا تحميها فى أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان فى هذا وذاك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم حفنات التراب من بلادهم الأصيلة لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ، وحملوا فى جد ووقار قبساً من النار من المذابح العامة فى مدافنهم الأولى ليشعلوا به النار فى مواقد المدن التى أنشأوها فى مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون مواضع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون السفن — وهى الموطن الثانى لنصف اليونان — ملجأ يعصمهم من هجمات الأعداء براً ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلى تحميها الجبال التى تصد المغيرين من ورائها ، أو على تل يكون حصناً منيعاً فى داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء فى البحر يحميه لسان بارز منه ؛ وخير من هذا وذاك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجارى أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنتعش ويعمها الرخاء عاجلا كان ذلك أو آجلا . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ، واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم يكن اليونان فى هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاه نحن الآن(*) ، فكان الفاتحون فى بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس الدعاوى المضحكة الباطلة التى ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية . وكان أكثر من هذا حدوثاً أن يتودد المهاجرون الجدد إلى السكان الأولين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لبهم بثقافتهم الراقية ، ومغازلة نسائهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون بنقاء الدم(٣) . وكان فى وسعهم على الدوام أن يجدوا فى مجتمع آلهتهم الكثيرة

(*) يريد الأمريكيين .

إلهاً شبيهاً بإله الموطن الجديد شبهاً ييسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعته أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أمهم التى هاجروا منها ، والتى لا تنفك قلوبهم تنطوى لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة الضيقة التى كان يطلق عليها هذا الاسم فى أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى تراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقى من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود فى تاريخ نساء اليونان ، فلسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مما كن فى ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التى تفيض جِدّاً وحيوية وذكاء نشر اليونان فى جميع أنحاء أوربا الجنوبية بذور ذلك الترف المزعزع الدال على الحذق والدهاء الذى يطلق عليه اسم الحضارة ، والذى لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثانى

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بحراً من پيريس (پيرية) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان فى يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغو الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشيكران السام حتى يكفى الطعام من يبقى حياً من الناس[٤] » إذا قبلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوطرخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينفى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ فى موطنه الأصلى السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمنيدس وهو فى سن الثلاثين ، ولما مات فى عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته فى الشعر والغناء هى التى جعلت هپاركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكمين بأمرهما معاً فى أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع فى بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقى حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قبريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش فى شيخوخته فى بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حداً أمكنه به أن يعقد الصلح فى ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Theron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما[٥] . ويحدثنا أفلوطرخس فى مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيوخ » أن سمنيدس ظل يكسب جائزة

الشعر الغنائى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر أن يموت دفن فى أكرجاس بمظاهر التكريم الخليقة بالملوك .

ولم يكن سمنيدس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلا ذا شخصية عجيبة ، وكان اليونان ينددون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرماً بالمال فإذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ، وحجته فى هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس ؛ ولكن هذه العادة كانت جديدة فى بلاد اليونان ، وكان أرستفنز يردد غضب الشعب منها ، ويقول إن سمنيدس « لا يستنكف أن يذهب إلى البحر فى محفة ليكسب فيه فلساً[1] » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار أخذها عنه شيشرون واعترف بفضله عليه[1] . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة فى ترتيب منطقى من نوع ما بحيث يؤدى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان رجلا فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة فى جميع مدن اليونان وتداولها الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال فى شيخوخته إنه كثيراً ما ندم على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت[8] .

وإنا ليدهشنا أن نجد فى القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكآبة التى كانت طابع الكثير من أدب اليونان بعد هومر — ونقول بعد هومر لأن الناس فى أيامه كانوا أنشط من أن يكتئبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا تحت أطباق الثرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛ إن الأحزان تأتى فى أعقاب الأحزان طوال حياته القصيرة ثم يدركه آخر الأمر الموت الذى لاينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأخيار والأشرار على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالد ؛ وما أصدق قول شاعر طشيوز Chios إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكره منهم أحد ، لأن الأمل قوى فى صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان فى نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر فى المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حمق من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة[٩] » .

ولم يكن يجيش فى صدر سمنيدس أمل فى جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولمبس قد أصبحت كأرباب المسيحية فى بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحداه هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفى اليوم الثانى استمهله يومين آخرين ، وكان فى كل مرة يضاعف لمهلة التى يطلبها ليعد فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزداد غموضاً كلما طال تفكيره فيه[١٠] .

ولم تنجب كيوس سمنيدس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته فى الشعر الغنائى ، وأنجبت فى أيام الإسكندر الأكبر إراستراتس Erasistratus العالم الكبير فى تشريح الأجسام . وليس فى مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيوس Ios . وفى سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالى ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أپلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل

حدودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت منيته يبعد عنها ، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أپلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية[١١] . وفى هذه الجزيرة احتفظت أثينة هى وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يختلط فيه التقى بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة[١٢] » ، والتجار الحريصين الداثبين على العمل فى حوانيتهم ؛ والجماهير المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام فى المعبد من شعائر وطقوس مهيبة ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرح والترانيم الجماعية التى تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن لجمالهن وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التى كانت تمثل فى الملاهى فى الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون فى كل عام بعثة إلى ديلوس تحتفل فيها بمولد أپلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم فى أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التى انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتى أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائز السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرها . واشتهرت فى الزمن القـــديم بخمرها ورخامها ، وأثرت فى القرن السادس ثراء أمكنها أن تبنى لها أسطولا خاصاً بها، وأن تكون لها مدرسة خاصـــة للنحت . وإلى الجنوب الشرقى من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذى هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پركستيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الآدمى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتراة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغنين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شمالا إلى ثاسيوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة ألقى بدرعه وأطلق ساقيه للريح لأنه وجدهما أعود عليه بالفائدة من الدروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكمبز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضـــعة ، لها ضفيرتان تنوسان على كتفيها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن « كل ما يتمناه أن يلمس يدها(١٤) » . ولكن ليكمبز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، فقضى على آماله ؛ فما كان من أركلوكس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حملة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثتهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلأ قلب أركلوكس حقداً على پاروس فترك « تينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الهرب قتل وهو يحارب النكسيين(**) .

وتدلنا قصائده على أنه كان يغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولع بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب(٥١)

(*) يشبه سمنيدس النساء فى أيامه بالثعالب والحمير والخنازير ، والبحر المتقلب ، ويتهم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(**) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التى ترتسم له فى مخيلتنا هى صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذى اللفظ الخشن فى نثره المصقول فى شعره ، يعمد إلى البحر العمبقى(*) من بحور الشعر ، وهو الذى كانت تصاغ فيه الأغانى الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لاذعة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العمبقى ذو الثلاثة الأوتاد هو الذى كتبت به المآسى اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقتيلى(**) السداسى الأوتاد والتروقى(†) الرباعى الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدا(††) . وهو الذى أدخل فى الشعر اليونانى الأوزان التى احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولسنا نجد بدأ من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بيئ وطنه بعد هومر . وكان هوراس يحب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما سئل أرستفنيز البيزنطى الناقد المتأغرق العظيم أى قصائد أركلوكوس أحبها إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد(١٦) » .

وعلى مسيرة باكورة اليوم بالسفينة من پاروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيما استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(*) البحر العمبقى Iambic هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا نبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو نبرة صوتية . (المترجم)

(**) البحر الدقتيلى هو الذى يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(†) والتروقى يتألف كل وتد من أوتاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(††) إذا شاء القارئ أمثلة لهذه البحور فإنه يجدها فى قصيدتى Evangeline و Hiawtha لنج فلو Lengfellow ، وفى مقطوعة Blwo blow, thou winter wrind لشيكسپير ؛ فالأولى من البحر الدقتيلى السداسى الأوتاد والثانية من التروقى الرباعى الأوتاد والثالثة من العمبقى الثلاثى الأوتاد .

عليه فى إقامة الخزانة السَّفنية فى دلى ، وما فيها من تماثيل النســـوة اللائى يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدنين النفيسين على الأهلين فى آخر كل عام (١٧) . وفى عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا فى هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة — أى ما يساوى ٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس فى العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدورى

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سكلديس وروضوا طباعهم العسكرية بتدريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرومهم . وفى ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزى استخراج الحجر الزجاجى الطبيعى ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبذلون قصارى جهدهم لكسب معونتها فى كفاحهم مع اسپارطة . وسنرى هذا فى الفصول التالية من هذا الكتاب . وفى هذه الجزيرة عثر المنقبون على « أفروديتى ميلوس(*) » وهو الآن أشهر تمثال فى العالم الغربى كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا جالية منهم استعمرت سيرينى . واستقر عدد قليل منهم فى قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار پجمليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفروديتى نحته هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهبه الحياة ، فلما أجابت رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده(١٨) . والراجح أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلين الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين إياها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(*) أوڤينوس (زهرة) ميلوكا يعرفها الغربيون باسمها المشتق من اسم الإلهة الرومانى واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف المجدبة كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، فى العصر اليونانى خليطاً من آثار الفن المصرى والفينيقى واليونانى ، ولم يكن له فى يوم من الأيام طابع واحد خاص به(*) .

ولم يكن الدوريون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما فى رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء فى القرون التى بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا فى العصر الذى اصطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون الدوريون على لسان فى البحر بارز من قارة آسية مدينة نيدوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أضحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفى هذه المدينة ولد فى مستقبل الأيام يودكسس Eudoxus الفلكى وتسياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وسستراتس Sostratus الذى بنى فى مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمتر الأم الحزينة المحفوظ فى المتحف البريطانى .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقراط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليونانى ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أپليز Apelles الرسام وثيكريتوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكرنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت فى أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكارى وحبيبته أرتميزيا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكمبرس ، وبليس) المدائن الست الدورية فى آسية الصغرى وهى التى قامت تنافس إلى حين مدائن أيونيا الاثنتى عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٣ من مجموعة العاديات القبرصية لسنولا Cesnola فى المتحف الفنى بنيويورك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليز فى عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة بلغتين استطاعوا بفضلها أن يحلوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم والعالم أنها لهجة من اللهجات اليونانية تكتب برموز مقطعية . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تضف شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

١ — ميليتس والموطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربى من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلى جبلى يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف فى الزمن القديم باسم أيونيا . ويصفه هيرودوت بقوله « إن هواءه ومناخه أجمل هواء ومناخ فى العالم كله[١٩] » . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط ، منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهى أبعد المدن الاثنتى عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليونانى كله فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة فى موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوى ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالى ١٠٠٠ ق . م ، وجدوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت فى صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخذوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكتفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل[٣٠] . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، فى أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها فى الحرب ، ثم خضعت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى ذروتيهما فى عهد الطاغية ثراسيبولوس Thrasybulus فى بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثمر رخاؤها المطرد أدباً وفلسفة وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلأ الغنية فى الداخل وينسج ملابس فى مصانع النسيج القائمة فى المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها فى مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروبنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلميهم فى هذا المجال فكان لميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها فى الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أبيدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوپ ، وألبيا Olbia ، وتراپيزوس Trapezus ، وديوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعاتها اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعير بهما المدينة فى بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات فى طول البلاد وعرضها وفى المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشى فى عصر النهضة الأيونية .

وفى هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهنى أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التى امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله — نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، فمفاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقى السليم . وقد تلاقى فى ميليتس كما تلاقى فى أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلى بعثه فيهم التنافس التجارى ، وقد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية

شكل ١٣) عذراء
منقولة عن (متحف الأكروپول بأثينة)

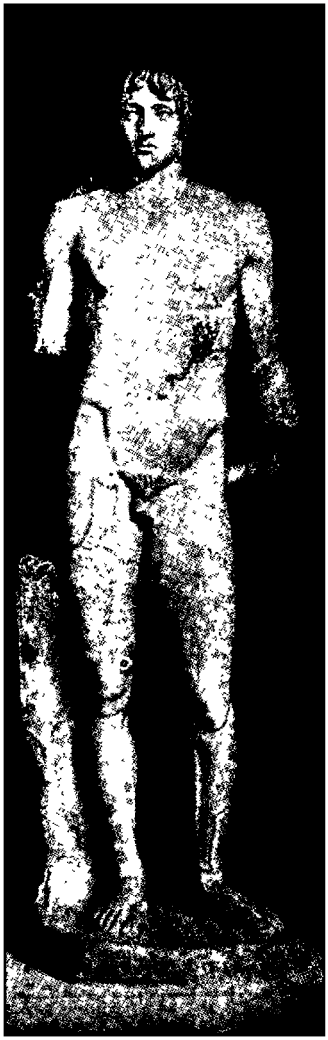

(شكل ١٤) أپلو
(عن متحف الأكروپول بأثينة)

وعلم الفلك البابلى العقل اليونانى ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها فى وقت واحد . وكان الثراء فى هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ؛ ونشأت فى البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكرى لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة فى المدينة . ولم يكن يُضَيق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد الهومرية التى أمست فيما بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائى المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيونى والمرح المجونى . ومن ثم أصبح التفكير فى هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير دينى يسعى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يحير العقول من مسائل العالم والناس(*) .

على أن الغرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الغرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية الطيبة التى كانت من خصائص التجار الفينيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبئين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليقة المجسدة التى صاغها هزيود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن موبرا mori a أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم فى الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذى يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهى الفكرة التى تدل على الفرق الجوهرى بين العلم والأساطير ؛ وبين الاستبداد والدمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التى جعلت اليونان ذوى خطر فى

(*) وقد ظهرت حركات شبيهة بهذه الحركة فى الهند والصين فى هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعتهم فيه إلى أعلى مكانة ، هى أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه فى البحث الفلسفى وفى اختيار الحكم الذى يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أى بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبى ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هى التى تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر دينى قوى . وقد كان فى الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعى النزعة ظاهر والثانى تيار صوفى غامض . وقد نشأ الثانى من عهد فيثاغورس ، وشمل برمنديدس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلنثيس Cleanthes وانتهى بپلنتينوس Blontinus والقديس بولس ؛ وأما الثانى فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكزنوفانيس Xenophanes ، وپروتجراس ، وهبقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم — كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس — فيمزج التيارين فى مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التى لا تنطبق على قانون . على أن النغمة الغالبة فى هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هى حب اتباع العقل ؛ وهى النغمة التى يمتاز بها التفكير اليونانى .

ولد طاليس حوالى ٦٤٠ق . م وأكبر الظن أنه ولد فى ميليتس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين[٢١] ، وتلقى معظم تعليمه فى مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذى أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته فى معاصر الزيت(*) . ثم صرف باقى

(*) وهاهى ذى القصة على لسان أرسطو نفسه ؛ يقولون إن طاليس أدرك بمهارته فى علم النجوم (الفلك) أن محصول الزيتون سيكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء =

وقته فى الدرس وانهمك فيه انهماكا توحى به قصة سقوطه فى حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزلته يهتم بشئون المدنيـــة ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس(٢٣)

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو فى مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها فى الساعة التى يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أيونيا واصل دراسة الهندســـة النظرية التى خلبت لبه بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمى ، وشرح كثير من النظريات التى جمعها إقليدس فيما بعـــد(*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذى قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعـــلم الفلك الأساس الذى قام عليه هـــذا العلم فى الحضارة الغربية ، بعد أن خلصه من التنجيم الذى أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أيونيا بأجمعها حين أفلح فى التنبؤ بخسوف الشمس فى الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م (٢٥) ، والراجح أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته فى نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

= قبل أن يحين موعد جنيه جميع معاصر الزيت فى ميليتس وطشيوز بإيجار منخفض لأنه لم يجد وقتئذ أحداً ينافسه . ولما حل موعد عصر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجرها لهم بالشروط التى يرتضيها ، وجمع بهذه الطريقة أموالا طائلة وأثبت لهم أن من اليسير على الفلاسفة أن يغتنوا إذا شاءوا .

(*) وهى : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوى الساقين متشابهتان (يقصد متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتان ؛ وأن المثلثين يتساويان إذا تساوت فى أحدهما زاويتان وضلع بنظائرها فى المثلث الثانى(٢٤) .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يرتكز على منبســط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستوطاف على السطح المستوى فى داخل هذا الجسم النصف الكرى. ويذكرنا هذا بقول جيته Goethe إن الإنسان يشترك فى رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه ينفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلائق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلى ومصيرها النهائى . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأى بعد أن شاهد « أن غذاء كل شىء رطب وأن ... بدور كل شىء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شىء هو دائماً مبدؤها الأساسى(٢٧) » . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث — الغازية والسائلة والصلبة — التى يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما فى آرائه قوله إن الماء أصل كل شىء ، بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول بوحدة المادة فى التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء فى العالم حى ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأيها عن الآخر ، وأن فى النباتات والمعادن « نفسا » خالدة كما فى الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحيوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً (٢٨) . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهرى بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما(٢٩) » .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعتزمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طاليس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذى جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ماليس له بداية ولا نهايه » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله[٣٠] » . ويقول ديوچنيز ليرتيوس Diogenes Laertius[٣١] : إنه مات « وهو يشاهد مباراة فى الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظمأ والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون[٣٢] . إن طاليس كان من كتب فى الفزيولوچيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيما على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شبهاً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطين . ويقول أنكسمندر إن المبدأ الأول كان لا نهائية غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة(*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسمندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإليتية Eleatic فيما وراء الطبيعة — وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجديدة فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإليها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شىء تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ؛ إلى التباين المترابط المحدد[٣٣] » .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى اللانهائية الأزلية على جميع الأضداد — الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح فى حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفى حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهائية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسپنسر آراءهما) . وفى قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويعتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء فى الأشياء التى ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التى يمكن أن تغتفر فى عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شىء فى وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء (٣٤) . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك فى دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع فى اسپارطة مزولة (gnomon) — وأكبر الظن أنه قلد فيها نماذج بابلية — أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول(٣٥) . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكاتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علما ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور(**) .

ويقول أنكسمندر إن الدنيا فى أول صورة لها كانت فى حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضا ، وبخرت بعضها فكان سحابا ؛

(*) ودائرة فلك البروج هى الدائرة الكبرى التى تدور فيها الشمس فى حركتها الظاهرية السنوية فى السماء . وإذ كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣°) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضى ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة محدودة .

وإن اختلاف الحرارة فى جوها الذى تكوّن بهذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ؛ وكانت الحيوانات الأرضية فى بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التى هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك[٣٦]

وكان أنكسمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأنا ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالى الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله [٣٧] تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، وتجد لها عاصما فى الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ المدون فى بلاد اليونان كلها(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعى فى شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى قوى الطبيعة فى الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنب تجسيد القوى ومنحها روحا ، كما أن أصعب الأشياء على هـذا التجسيد وذاك المنح أن يتجنبا الشـعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التى تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العـادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نضوج الأمة والشاهد على انقضاء عهد

(*) على القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف بعد كلمتى أقدم وأول وأمثالها .

شبابها . وقد ظل الأدب اليونانى كله تقريبا إلى العصر الذى نتحدث عنه (٦٠٠ ق . م) ، وتقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثرا ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زنوفانيز ، وبرميدس ، وأنبدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفى ثوبا شعريا ؛ وكما أن العلم كان فى بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة فى أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسيد القوى ومنحها روحا ، ومن التشابه والاستعارات(*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة فى تاريخ العلم أن يشرح فرسيدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما فى ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدءوا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لميليتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لساموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً لليديا . وفى أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus الميليتى بالتاريخ والجغرافية رقياً عظيما فى كتابين يعدان فتحاً جديداً فى هذين العلمين هما الهستريای Historiai أو البحوث والجس پريودوس Oes Periodos أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثانى الكوكب الأرضى قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقية ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيرودوت على الكثير منها دون أن يعترف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إنى أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان فى نظرى كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أفعال هومر تاريخاً وأخذ منها

(*) للكاتب الإنجليزى لورد مكولى بحث طريف فى هذا الموضوع تضمنه مقاله من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحقة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ لليونان يمكن الركون إليه . وجملة القول أن كتابة التاريخ اليونانى كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهروا فى هذا العصر فى معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ فى أيونيا معنى يثير الريبة فى نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأبطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفاسير عقلية لعلل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكاتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليونانى قبل هيرودوت بهزيمة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وفقرها فى العصر الذى بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة فى مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الترف سبباً فى انغماس الناس فى الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية فى نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التى يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليتيون شجعانا فى يوم من الأيام[٢٨] » . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قدرته على تخفيف النزاع بين الطبقات ببث مبادئ الرحمة والعدالة فى

(*) وهى مشتقة من histor أو istor ومعناها عارف ، وهى تيسير فى النطق لكلمة id - tor المأخوذة من id فى eidenai بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة wit الإنجليزية فى wisdom . وكلمة Story اختصاً لكلمة history .

نفوس الأقوياء والسلوى فى نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورية الأرجاركيـــة حزباً متحداً يقف فى وجه الفقراء المطالبين بالدمقراطية ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطردوا الأغنياء من البلاد ، وجمعوا من بقى من أبناء الأغنياء فى أماكن الدراس ، وأطلقوا عليهم الثيران فداستهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلوا جلود زعماء الدمقراطية بالقار وأحرقوهم أحياء[٣٩] ؛ وستقال عنا هذه القصة فى مستقبل الأيام . ولما شرع كروسس فى عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم ليديا ساحل آسية الصغرى اليونانى الممتد من نيدس إلى الهلسپنت (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانية . ولكن قورش فتح ليديا فى عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على مدن أيونيا التى مزقتها الانقسامات الداخلية ، وضمها إلى الدولة الفارسية ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجيد . إن العلم والفلسفة فى تاريخ الدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ — بوليكراتيز الساموسى

على شاطئ الخليج فى مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر الميندر Maender كانت تقوم بلدة ميوس المتواضعة أشهر مدائن البرينى Priene ، وكان يسكنها فى القرن السادس بياس Bias أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرمپوس Hermippus يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختافوا فى أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التى وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ؛ وبياس ، وپتكوس Pittacus الميليتى ، وپريندر الكورنثى ، وشيلون Chilon الأسپارطى ، وكليوبولوس Cleobolus اللندى (Lindus) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين، وكما عظمت إيطاليا فى عهد النهضة العبقرية الفنية ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكمائهم هم أصحاب النظريات العلمية ، بل كانوا رجالا جعلوا لحكمتهم عملا جدياً نشيطاً فى العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكما وأمثالا يتناقلها اليونان ، وكانت فى بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أبلو فى دلفى . فقد كان الناس مثلا مولعين بترديد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلا أو قصيراً ، وإن « الحكمة يجب أن يعتز بها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أبقى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان (٤٠) » .

وإلى غرب پريينى تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا فى الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبى الشرقى ؛ وكان الإنسان إذا ما دخل موفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التى يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشهده الأرصفة والحوانيت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ؛ ثم حصنها القائم على الربوة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومنهن وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظراً يثير الحماسة الوطنية فى قلب كل ساموسى .

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها فى الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم پوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذى تدره عليه رسوم الميناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق فى جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفى

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان فى الرياضة والهندسة إذا عرفنا أن الثقبين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا فى وسط النفق ، وأن الخطأ فى تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمانى عشرة قدماً فى الاتجاه وعلى تسع أقدام فى الارتفاع(*)(٤١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبل پوليكراتيز بزمن طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبدا فريجيا للادمون Lodmon اليونانى . وتقول إحدى الروايات التى لم تؤيد بعدُ إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش فى بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التى كلفه كروسس بتوزيعها فى دلفى ، وإنه لقى حتفه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالهم(٤٢) . وكانت خرافاته التى أخذ معظمها من مصادر شرقية منتشرة بين الأثينيين فى عصر بلادهم الأدبى . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً(٤٣) ، وإن ما فيها من فلسفة فلسفةٌ يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها مصوغة فى قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ؛ والأرض والبحر ، والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هـذه فخوف وألم(٤٤) » وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا نزال حتى الآن نلتقى به فى الڤاتيكان حيث نراه على كوب من عصر پركلير ذى رأس أصاب الصلع نصفه ولحية كلحية ڤانديك Vandyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له قصة ذات فائدة له(٤٥)

وفى ساموس ولد فيثاغورس العظيم ، ولكنه غادرها فى عام ٥٢٩ ليعيش فى كروثونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى بمحاسن پوليكراتيز ويربى له ابنه ؛ وكانت أعظم شخصية فى بلاد پوليكراتيز هى شخصية الفنان ثيودوس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزيد الخطأ عند التقاء الثقبين فى هذه الايام على بضع بوصات ، وقد لا يكون ثمة خطأ على الإطلاق .

طرفاً من كل شيء ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان — ولعلهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب — اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والمخرطة[٤٦] . وكان ماهراً فى الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك فى تصميم المعبد الثانى لأرتميس فى إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة فى اسپارطة ، وساعد على إدخال التماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المجوف من مصر أو من أشور إلى ساموس[٤٧] . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بتثبيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب[٤٨] ، أما فى أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربة فى دلفى وقاذف القرص فى ميرون . واشتهرت ساموس فضلا عن هذا بفخارها ؛ ويثنى پلنى على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبيل لم يكرنوا يستخدمون غير شقافة ساموس فى حرمان أنفسهم من رجولتهم[٤٩] .

٣ — هرقليطس الإفسوسى

وعلى الجانب الثانى المقابل لساموس من خليج كايستر ا كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أيونيا ، وقد أنشأها حوالى عام ١٠٠٠ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهرى كايشتر وميندر سبباً فى رخاء المدينة . وكان فى أصلها ، وفى دينها ، وفنها ، عنصر شرقى واضح . وكانت أرتميز التى تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمومة والخصوبة . وقد حدثت فى هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون فى عددهم عمن ماتو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوال عام ٦٠٠٠ ق . م فى موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيرنى . وشيد الهيكل الثانى حوالى عام ٥٤٠ وقدم كروسس جزءاً كبيراً من المال الذى أنفق فى تشييده ، واشترك فى تصميمه پيونيوس الإفسوسى وثيودورس الساموسى ، ودمتريوس أحد كهنة الضريح . وكان أكبر هيكل يونانى أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان بعد بلا نزاع من بين عجائب الدنيا السبع(*) . ولم تشتهر المدينة بهياكلها وحدها ، بل اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبنسائها ذوات الجلاليب الغالية(٥١) . وعاش فيها فى ذلك الزمن البعيد أى حوالى ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus أول من نعرف من شعراء المراثى فى بلاد اليونان . وكان أعظم منه قدراً وأقبح منه منظراً هيوناكس Hipponax الذى ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة فى موضوعها ، غامضة فى ألفاظها ، لاذعة فى فكاهتها ، دقيقة فى وزنها الشعرى ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية فى قبح المنظر . ويقول فى بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة للرجل فى يومين — « أحدهما يوم يتزوجها ، والثانى يوم يدفنها(٥٢) » . وكان هجاء قاسياً هجا كل عظيم فى إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل ، ولما عرض المثالان بوپالوس Bupalus وأثنيس Athenis رسماً له مضحكاً لطيفاً ، هجاهما فى شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حداً جعله أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هو هرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

---

(*) وكانت العجائب الست الأخرى هى حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ، وتمثال رودس الضخم ، وزيوس فيدياس فى أولمپيا ، وقبر موسولس فى هليكرنسس ، وأهرام مصر . ويصف پانى الهيكل الثانى بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً فى الطول ، ٢٢٥ قدماً فى العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً — وكان بعضها مزداناً أو مشوهاً بالنقوش(٥٠) . وقد تم بناء هذا الهيكل فى عام ٥٢٠ ق . م بعد كدح دام قرناً كاملا ، ثم احترق وتهدم فى عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد فى عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الدمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله فى هذا المعنى (١١١(*)) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » و « عندى أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبوه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب فى هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هى : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأفاد هزيود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتيوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحقة الوحيدة هى معرفة الفكرة التى تسيطر بنفسها على كل شىء فى جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش فى شعاب الجبال ، ويجيل العقل فى الفكرة الوحيدة التى يستطيع بها أن يفسر كل شىء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره فى ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب فى غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه فى أمثال جامعة غامضة فى الطبيعة ، أودعها هيكل أرتميز لتحير عقول الخلف .

وقد صُوِّر هرقليطس فى الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقى من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن الواحد المستتر وراء الكثرة ، وعن وحدة تثبت العقول ، ونظام بين ما فى العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال فى هذا المعنى قولا لا يقل قوة وحماسة عن قول پرمنيدز Parmenidez (١) إن الأشياء كلها وحدة » ؛ والمشكلة التى تواجهها الفلسفة هى أن تعرف ما هى هذه الوحدة . وقد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التى بين الأقواس إلى الباقى من أقوال هرقليطس كما رقمها باى ووتر Bywater .

هى النار . ولعله كان فى هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالا رمزياً وحرفياً معاً ، ويقصد به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله فى معنى واحد . على أننا ليس فى وسعنا أن نقطع برأى فى هذا بالاستناد إلى القليل الباقى من فلسفته . انظر مثلا إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شىء صورة من صور النار ، فهو إما فى « طريق » النار « إلى أسفل » فى تكثفها المتتابع إلى رطوبة ، فماء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة(*) ، إلى النار(٥٤) » .

ومما يضايق هرقليطس فى النار الخالدة أنها تتبدل تبدلا لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثانى الذى يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده فى كل شىء ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً فى الكون أو فى العقل أو فى النفس ؛ فلا شىء كائن بل

(*) وربما كان فى عقل هرقليطس شىء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتى : يبدأ العالم ناراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التى فى الأرض(٥٥) ، والماء والأرض (أى السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، والنار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أى انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل — . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يتغير » (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان فى دورة دائبة من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون فى طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق التكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كامنة وراءها . وقد عبر اسپنوزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هى المادة الخالدة الموجودة فى كل مكان أو هى المبدأ الأساسى . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هى الأشياء الظاهرة فى العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى فى أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائب على الخروج عن حاله التى هو عليها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلقى من هرقليطس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما يقتصر طاليس) على السؤال عن ماهية الأشياء فى حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشيوس ، واسپنسر عن الطريقة التى أدت بها إلى ما هى عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هى خير طريقة تعرف بها الأولى . ولسنا نجد فيما بقى لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei,ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليطس[٥٦] : « إنك لا تستطيع أن تخطو خطوتين فى نهر واحد ، لأن مياها أخرى لا تنفك تجرى إليك (٤١) ». « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل فى ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكينونة ؛ والتعدد حقيقة لا تقل فى ذلك عن الوحدة[٥٧] . فالكثرة هى الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هى الكثرة ، وفى قلب النار نفسها يخفق التغير الذى لا يستقر أبداً (*) .

ومن هنا ينتقل هرقليطس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته — وهو وحدة الأضداد، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض، وائتلاف النزاع . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخير والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر » (٥٧—٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة » (٧٨) لأن هذه

(*) على القارئ أن يذكر على الدوام أن هرقليطس هو الفيلسوف الغامض !

الأضداد كلها مراحل فى حركة متقلبة ، ولحظات فى النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد فى الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هى توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدتها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفســه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرامى ووتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شددته أحدث التآلف فى الذبذبة الذى نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تآلف الحياة والتغير ومعناهما . وفى النزاع القائم بين كائن حى وكائن حى ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هى اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التى تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة واتفاقه المخبوء . وأجمل التطابق ماكان بين الأشياء التى تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى بخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها — النار والتغير ووحــدة التوتر فى الأضداد — تدخل كلها فى فكرة هرقليطس عن الروح والله . وهو يسخر من الذين « يسعون عبثاً ليطهروا أنفسهم من خفايا الدم بتدنيس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا — ولا فرق بين من يفعل هــذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحقة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شىء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء فى الليــل » (٧٧) . والإنسان فى هذه الحالة نفسها ، نار ؛ والنفس ، أو المبدأ الحيوى فى الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة فى الأشياء جميعها ؛ وهى بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت والميلاد نقطتان حددهما العقل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفياً ؛ ولكنهما من وجهة نظر الكون النزيهة الخالية من التحيزات لا تعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التى لا تقف عند حد ؛ ففى كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويعيش الكل ، وفى كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وألفاظنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقنا نفسها ، نزعات وأهواء ، وتمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية فى ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لهب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ؛ فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التى لا تفنى أبداً . وهو الوحدة التى تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعانى فى كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كلتيهما توجد فى كل مكان ، وهما شىء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تنفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على سلم التغير ، ولا تفتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتى يوم بعيد « تحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، فى يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعا ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علما أو عقلا أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السُّنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمى ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التى هى الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إلىَّ بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبحثوا عن العقل اللانهائى للكل وتتبعوه .

وحين يطبق هرقليطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره — الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد — وعقل الكل — ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقترنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ « وفى التغير يجد الإنسان الراحة ؛ والإنسان يمل الكدح الدائم فى الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد » (٧٢ — ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولا يمكن فهمه وغفرانه . « ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حلوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة » (١٠٤) . وهو يلوم الذين يرغبون فى القضاء على ما فى العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تآلف ، ولا ينسج نسيج حى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى ينفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شىء ومَلِك كل شىء ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالا ؛ وجعل البعض عبيدا ، والبعض أحرارا » (٤٤) . وفى النهاية يكون التنازع هو « العدالة » (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكوِّن محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقليطس فى جملتها ، كما تجمعها لنا الآن مائة وثلاثون جملة متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة فى اللاهوت المسيحى هى الكلمة الإلهية ، أو الحكمة المجسدة التى يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعى فى الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد انتعاشاً قوياً فى فلسفة هيجل ، واستردت فكرة التغير فى فلسفة برجسن Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح المحددة لجميع الأشياء ، فى فلسفة دارون ، واسپنسر ، ونتشه — وقد واصل آخرهم حرب هرقليطس ضد الدمقراطية بعد أربعة وعشرين قرنا — .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقليطس ؛ ولا نعرف عن موته إلا قصة لا سند لها رواها ديوجنيس لبرتس توضح لنا ما قد تنتهى إليه حياة النوابغ الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى وقته يضرب فى الجبال يقتات بالعشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن يحدثوا الجفاف بعد الجو الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه فى حظيرة ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تتبخر منه بما يحدثه هذا الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من العمر سبعين عاماً [٥٨] .

٤ — أنكريون التئوسى

تقوم كاوفون Colophon على مسيرة بضعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها مأخوذ من اسم التل الذى تقوم على جانبه(*) وقد ولد فيها حوالى ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kolophon اليونانى ومعناه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill لما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم على قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة —

زنوفانيز الذى كان يبغض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصففة المضمخة بالزيوت العطرة الغالية » ؛ إن للزهو بلا شك تاريخاً طويلا[٦٠] . وكان الشاعر ممنرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى فى هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً فى أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشاب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التى كانت توقع أغانيه على نغمات الناى الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها فى قصيدة من الشعر الرثائى العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلتهب ، وفى مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك فى يدها عمراً واحداً محزناً وموتاً واحداً[٦١] » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش فى مدينة تئوس القريبة من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد فى أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش فى بلاطهم لأنه لم يكن ينافسه فى بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيدس وحده . ونشهده منضماً إلى جماعة من المهـاجرين إلى أبدرا Abdera فى تراقية ، وينخرط فى سلك الجندية ، ويحارب فى ساسلة أو سلسلتين من المعارك . ثم يترك درعه فى الميدان كما كان يفعل الشعراء فى زمانه ، ولا يستل بعدئذ إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين فى بلاط پوليكراتيس فى ساموس ؛ وجىء به من هناك فى موكب رسمى فخم ، ليزدان به قصر هيباركس فى أثينة ، ثم عاد آخر

— Kolophon فى اللغة اليونانية مرادفة لعبارة الضربة القاضية ؛ ولما انتقلت إلى اللغة الإنجليزية أصبحت رمزاً للناشرين كانوا يضعونها أولا فى نهاية الكتاب .

الأمر إلى تئوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه العناء فى شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه فى ملذاته أن عمر طويلا حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ؛ وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنبة فى حلقه(٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكريون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هى الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف يصوغه فى البحر العربى (iambic) الخفيف ٥ وأيا كان الموضوع الذى يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بذيئاً أو غليظاً لأنه يصوغه فى ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكريون مثل هيوناكس ذا ألفاظ بذيئة حادة ، أو مثل سافو فى شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثرثرته المهذبة الرقيقة على من يشتريها ، ويمتدح كل ملك يعجبه ويبتاع له خمره . ويظن أثنيوس أن أغانيه الخمرية ، وتقلبه فى عشقه ، كانت كلها تصنعاً(٦٣) ؛ ولعل أنكريون كان يخفى وفاءه لكى يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفى اعتداله فى الشراب ليزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو ثمل طفلا صغيراً فانهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب فى شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيل له المدح(٦٤) . وكان لا يفرق فى عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الجنسين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء فى بعض ما بقى لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشَّعر الذهبى يضربنى بكرته الأرجوانية ، ويدعونى لكى ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددى الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشامخة ، ولا يعجبها شعرى الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى(٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذى عاش بعد عصره قبرية تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أينمى وطولى فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب المثل صديق الشراب الصافى ، الذى كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نغمات العود أغانى حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب المثل أن يعبث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملىء مثقل ، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذى لم يكن شذاه الذكى إلا أنفاساً تخرج من فمه الرقيق حين كبر[٦٦] .

٥ - طشيوز ، أزمير ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الاصلية من تئوس نحو الغرب فى خلجان ونتوءات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر فى البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios(*) . وليس ببعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه فى هذه الجزيرة بين غياض التين والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر الخمر من الصناعات الكبرى فى طشيوز ، وكان يشتغل به عدد كبير من الرقيق ؛ فقد كانت الجزيرة فى عام ٤٣١ تضم ٣٠٫٠٠٠ من الأحرار ، ١٠٠٫٠٠٠ من الأرقاء[٦٧] ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النخاسون يبتاعون من الدائنين أبناء من عجزوا عن الوفاء بديونهم ، ويبتاعون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون فى قصور ليديا وفارس[٦٨] .

وفى القرن السادس ثار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التى أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم بكان منيع فى الجبال وفرض الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أموالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(*) هذا هو الاسم التركى لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

عندنا(*) فى هذه الأيام ، وأرغمهم بجبروته على أن يعاملوا عبيدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقُطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى لجماعة من أصدقائه حتى يحق لهم أن يطالبوا بالمكافأة التى وعد بها من يأتى به ، وظل مئات من السنين بعد موته يعد نصير الأرقاء والإله الحامى لهم(٦٩) ؛ وتلك حياة ما أجدرها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثورى مثل حياة اسپارتكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرق فى طشيوز . وكانت الجزيرة مركز الهومريين وهم رابطة من الشعراء المتتابعين ، وفيها ولد أيون Ion الكاتب المسرحى ، وتيوپومپوس Theopompus المؤرخ . وهنا كشف جلوكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالى ٥٦٠ صناعة طرق الحديد المحمى ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولداه بوپالوس وأثنيس أجمل ما صنع من التماثيل فى القرن السادس فى بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع إريثرا Erythra وكلازومينى Clazomenae — مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم پركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التى استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م(٧٠) ، ثم استحالت بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة فى ايام أخيل ، وقد بهبها ألياتس Alyattes الليدى حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مراراً ، كان آخرها فى عام ١٩٢٤ م على أيدى اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق فى قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاقت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء(**) . ويدل ما بقى من مبانى المدينة القديمة على ثرائها

(*) يريد فى أمريكا .

(**) إن اسم المدينة القديم أزمير نا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان فى أغلب الظن بتجارة المُرّ . وهى ثانى مدينة فى تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة فى آسية الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف فى أرضها عن ملعب رياضى ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينها الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسى ، المعروف بالذهبى ، مشهوراً ذائع الصيت فى بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالا مدينة فوقية ، Phocaea ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هـــذا الاتصال مزية عظيمة فى تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانيـــة إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هى مدائن أيونيا الاثنتا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأنا نطوف بها فى رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق فى المصالح ، وكانوا يجتمعون فى مراسم معينة فى ميكالى Mycale ، الأكمة الممتدة فى البحر عند برين Prien ، فى عيد جميع الأيونيين Paniomium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤلفوا منهم جامعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً فى مدينته وفى الاتحاد الأيونى ، ولكن التنافس التجارى كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه بدل أن يؤدى إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ — ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلا للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن [illegible] ما كانت تنطوى عليه قلوب

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث فى نفوس الجماعات الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الحرية .

وتلك هى الظروف التى نمت فيها فى أيونيا العـــلوم ، والفلسفة ، والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها فى الوقت نفسه الشعراء الكثيرو العدد الذين جعلوا القرن السادس فى هيلاس يبدو خصيباً كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة التى حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان جميعها .

الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفى أعلى المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها فى التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة ، والرقى ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس ، وكانت تجارتها سبباً فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس ، وساموس ، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع ، وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Pittacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ، ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ، ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس ثائراً صخاباً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائد مثاراً للفتنة والثورة . وكان شريف المحتد ، وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد . وقد صطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعده « ألفيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت فى الحرب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما سنحت له الفرصة التى كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ، وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمتدح نفسه لخصافته الباسلة . وقد غنى أحياناً فى الحب ، ولكن أحب الموضوعات التى كتب فيها إلى نفسه كان موضوع الخمر التى اشتهرت بها لسبوس شهرتها فى الشعر . وهو ينصحنا بأن نعب الخمر عباً ، وأن ننقع بها غليلنا فى الصيف ، وأن نستقبل بها الموت بلا رهبة فى الخريف ، وأن ندفئ بها دماءنا فى الشتاء ، ونحتفل بها ببعث الطبيعة فى الربيع .

يزل مطر زيوس ، وفى السموات العلا تثور العاصفة ،
ويمسك البَرد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن فقم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية —
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولفاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التى تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالاً بأى حال ؛
أما خير دواء لنا
فهو الخمر نطرد بها لأفكار(٧٢)(*)

ولقد كان من سوء حظه — وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق بالا إليها — أن كان بين معاصريه امرأة هى أشهر نساء اليونان أجمعين ، ونعنى بها سافو . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

(*) ما أشبه هذه الأقوال بأقوال عمر الخيام . (المترجم)

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Execestidez ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « إنى أريد أن أتعلمها ثم أموت ![٧٣] » . وكان سقراط — ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه — يسميها « الجميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة ![٧٤] .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ؛ لأنى لا أعرف أن قد وجدت فى جميع العصور التى وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر[٧٥] » . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت پسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، فى إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أسرتها انتقلت إلى متلينى وهى لا تزال فى المهد . وكانت فى عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمروا ببيتاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ؛ ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، وبقول الشعر . ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان[٧٦] ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفى رقتها وحنانها . ومما قالته هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل »[٧٧] ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس « كانت تمتزج باللهب »[٧٨] ؛ وكانت مرهفة الحس إلى حد ما ، وكان هذا سبباً فى الحد من حماسة عقلها . وقد وصفها أثيس تلميذها المقرب إليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها بالزهر ؛ وما من شك فى أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية ، وشاهد ذلك أن لفيوس الذى نفى معها إلى بيرا أرسل إليها مسرعاً رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفلى ، يا طاهرة ، يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك فى أمر ولكن الحياء يمنعنى أن أنطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لو كانت رغباتك طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء ، لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة »[٧٩] . وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها فى قصائده وأناشيده ، ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة قد عقدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد افترقا حين نفيت سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيها أن بتاكوس قد خشى قلمها بعد نضوجه فنفاها فى هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ ، وهى فى سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً . وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ، وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عينى ، التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة »[٨٠] . وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت فى منفاها خمس سنين ، وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة . وإنا لنلمح بهرج الترف فى إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه الشمس »[٨١] . وأضحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت أشد الغضب حين شغف فى إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط(٨٢) .

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها . ذلك أن نفسها تاقت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هى أولى « مدارس صقل » الفتيات فى التاريخ كله : ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط الجنسى الشاذ . وأحبت سافو — وكانت وقتئذ أرملة — هاته الفتيات واحدة بعد واحدة . وقد قالت فى إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط(٨٣) » . وتقول فى إحدى القطع الأخرى : « لقد أحببتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت أنوثتى كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متلينى ، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة فى قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء جون أدنجتن سمندس فى شعر من البحر السافى :

إنه ليبدو لى هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذى يجلس ويراك بعينيه أمامه . فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان تتحدثين حديثك الفضى وتضحكين ضحك الحبيب فى غير صوت عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفى لأن يثير قلبى المكلوم فى صدرى ويبعثه على الاضطراب ! لأنى إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتى من فورى ، وانعقد لسانى ؛ وسرت فى ضلوعى نار تلظى يسمع من حولى حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتطن فى أذنى أمواج من الصوت عالية ، ويتصبب جسمى عرقاً فيجرى أنهاراً ، وترتجف جميع أعضائى ، ويصبح لونى أكثر اصفراراً من لون الكلأ فى الخريف ، وتنتابنى

آلام الموت المترصد لى فأضطرب وأضل فى سكرات(*) الحب[٨٤] .

وأخرج والدا أثيس ابنتهما من المدرسة ، ولدينا رسالة تعزى إلى سافو نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مراً لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ؛ وأقسم لك يا سافا أن فراقى إياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر ؛ ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى بك . فإذا لم تذكرينى ، فإنى سأذكرك بما تنسين ؛ ألا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبى ، وتزينين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك الأبيض الناضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع مقدس ؛ أو غدير ماء لم تذهب إليه ؛ ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير الربيع غابة من الغابات بسجع العندليب إلا ذهبت إليه معى[٨٥] » .

وتأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هـــذا وبين الموت » . إن هذا بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللسبوسى » أو أنها لم تكن إلا تدريباً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكنا لا شأن لنا بهذا

(*) ولقد ترك لنا سوفيرن مثلا من هذا البحر خيراً مما تركه جون أدنجتن سمنذس ووصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads مطلعها : لم يطرق جفونى الكرى طول الليل .

الجدل ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال فى لفظه ومبناه . وفى قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهر » ؛ وفى قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعذاب المر — الحلو » وتُشبِّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتى سها عنها الجانى ، لا لم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها[٨٦] » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحنت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها ستمائة يندر أن تكون متتالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية ورومة بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً[٨٧] ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعه من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتم قطع من كتب قديمة ؛ وجدت عليها بعض قصائد سافو[٨٨] .

وقد ثأر ذكور الأجيال التاليـــة لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas [٨٩] تروى كيف قفزت « العاهر سافو » — وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة — من فوق صخرة فى جزيرة لوكاس Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار قاؤون لم يستجب لحبها . ويشير ماندر ، واسترابون ، وغيرهما من الكتاب إلى هـــذه القصة ، ويرويها أوفد فى تفاصيل جميلة[٩٠] ولكنا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، وخليق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها فى مصر جواباً لها مؤثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت « لو أن ثدىي قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحمى قد بقى قادراً على حملهم ، لجئت إلى فراش الزوجية بقدمى ترتجفان ، ولكن الزمان قد خط على جسدى خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً[٩١] . وفى الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذى نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللطف والدعة ، وأنها بزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها فى آخر قطعة لها تلوم فى غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى تجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون : « سنتوجك يا سافو الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغانى وأشجاها ، ألا تعرفون أن إهابى كله قد تجعد من طول العمر ، وأن شَعرى قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ . . وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتما الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام فى طول الأرض وعرضها ، كذلك يقتفى الموت آثار كل حى ويمسك بتلابيبه آخر الأمر »[٩٢] .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

فى شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التى يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجمل النساء فى بلاد اليونان جميعها[٩٣] ، ومنها يسير الإنسان فى أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسپرديس الشمالية ؛ إلى إمبروس ، ولمنوس ، وسمثريس . وأنشأ الميليزيون حولى عام ٥٦٠ فى سعيهم للإشراف على الهلسپنت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئه الجنوبى ، ولا تزال هـذه البلدة قائمة حتى الآن(*) . ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرن Byron المضيق سباحة ، ومنه عبر جيش خشيارشاى البحر إلى أوربا على جسر من القوارب ، وإلى شرق هذه البلدة استعمر الفوقيون لمپاكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور . وفى داخل البروپنتس مجموعتان من الجزائر ، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهى غنية بالرخام الذى أكسب البروپنتس اسمه المعروف به فى هذه الأيام (بحر مرمره — أى بحر الرخام) وثانيتهما مجموعة الأركتنيسوس Arctonnesus . وفى أقصى طرفها الجنوبى أنشأ الميليزيون فى عام ٧٥٧ ثغر سيزكوس Cyzicus العظيم . وقامت على طول الساحل مدينة فى إثر مدينة : پنورموس Panormus ، ودسيليوم Dascylium ، وأپاميا Apameia ، وكيوس Cius ، وأستكوس Astacus ؛ وخلقدون Chalcedon . وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور ، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة ، وأنشأوا كرسپوليس

(*) كل المدن المذكورة فى هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم ، وإن سميت بأسماء غير أسمائها القديمة .

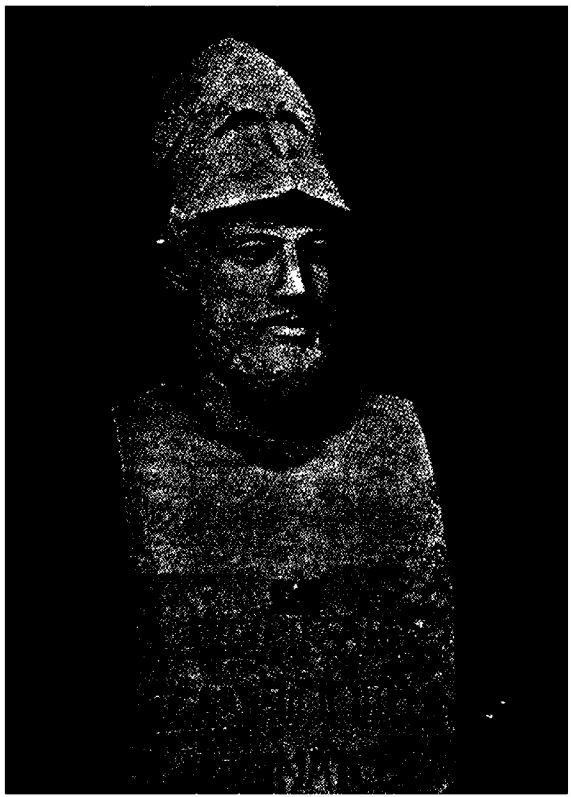

(شكل ١٥) پركليز
(المتحف البريطانى)

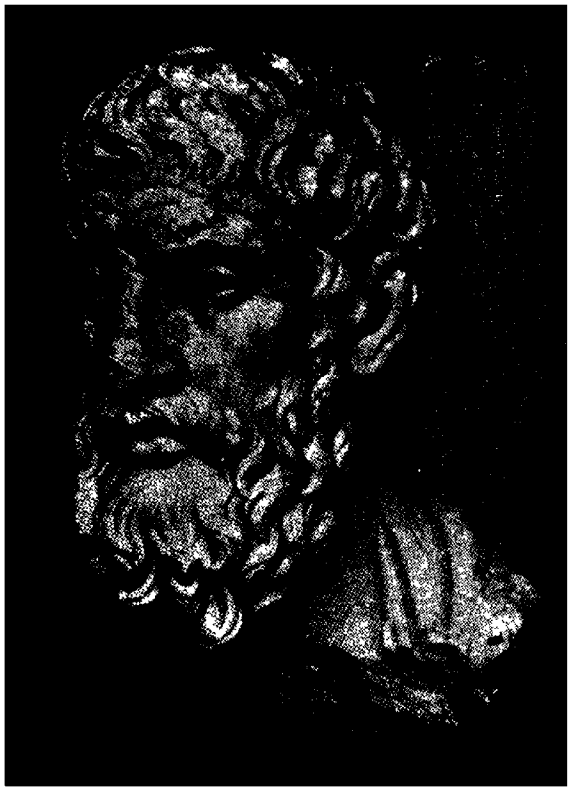

(شكل ١٦) أبيقور
(متحف نيويورك)

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Neopolis ، « مدينة النصر » ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن فى هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتتوم Pontica ، وسينوب Sinope — التى يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة[٩٤] ، بها ملعب رياضى عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظللة ذات عمد ؛ وكانت خليقة بأن يولد فيها ديوچين الكلبي Diogenes the Cynic ؛ ثم تليها أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتربوليس Tripolis ، وترابيزوس Trapezus (تربزند أوطربزون) ، والتى صاح فيها رجال زنوفون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذى طالما تاقت نفوسهم لرؤيته . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد چيسن فى أكبر الظن ، ثم على أيدى الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها فى ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوربا فى بداية العصر الحديث[٩٥] . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكيز Colchis الميدية وأسسوا فاسيس Phasis ، وديوسكورياس Dioscurias ، وثيودوسيا Theodosia ، وپنتيكپيوم Panticapaeum فى شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهرى البوج Bug والدنيپر مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesmis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إستروس Istrus (قنسطنطة أو قسطنج) ، وتومى Tomi (التى مات فيها أوفد) ؛ وأدسُّوس (وارنة) ، وأپولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التى لا تزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المنهمكين فى أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة فى بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ المجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium [*]) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتى تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الثغر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام پركليز مفتاح أوربا كما سماه ناپليون فى معاهدة تلزت Tilsit . وقد وصف پوليبيوس فى القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « من حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى فى العالم المعروف لنا[٩٧] » . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوذيا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع فى المضايق الضيقة . وقد كان التواؤها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائهما اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » ، وكانت أثينة فى عصر پركليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها فى أوقات الشدائد ، وتعامل إصدار الحبوب من موانى البحر الأسود معاملة مهربات الحرب[٩٨] .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو التراقى للبروپنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وپرنثوس Perinthus (إرجلى Eregli الحديثة) وبيزنثى Bisanthe ، وكاليبوليس Callipolis (غاليپولى) ، وسستوس Sestus . ثم أقاموا فيما بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبى الغربى عند أفروديسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسپوس

(*) ونرجح أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقرايطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية الذرية(*) وأمام ساحل تراقية فى البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، « الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار فى البحر » كما وصفها أركلوكوس(٩٩) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل منتجاتها منه تفى بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقدونية الشرقى أو بالقرب منه مدينتى نيپوليس Neapolis وأمفپوليس Amphipolis — وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً فى اشتعال نار الحرب التى خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس وإرتريا على شبه جزيرة كلسديس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهـذا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قدر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم فى تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيونى Scione ، ومندى Mende ، وپوتيديا ، وأكنثوس Acanthus ، وكليونى Cleonae ، وتورونى Torone ، وأولنثوس Olynthus التى استولى عليها فليب فى عام ٣٤٨ والتى تشتهر عندنا لصلتها بخطب دمستين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة فى أولنثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوى بعضها خمسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها فى أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفى وسعنا أن نستدل من هـذا العدد الكبير الذى كان يقيم فى مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر پركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا فى الجزائر العوبية الواقعة بين كلسديس وجزيرة عوبية الكبيرة ، وهى جيرونتيا Gerontia ،

(*) هى الفلسفة القائلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه فى صور مختلفة (المترجم)

وپوليجوس Polyaegos ، ، وإيكوس Icos ، وپپارثوس Peparethos ، واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط الإمبراطورية فى الشرق والشمال انطباقا تاما والتقى طرفاه . وبفضل نشاط اليونان ومغامراتهم استحالت جزائر بحر إيجة وســواحل آسية الصغرى ، وشواطئ الهلسپنت ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ، والتجارية ، وبالنشاط السياسى ، والأدبى ، والدينى ، والفلسفى ، والعلمى ، والفنى ، وبالبلاغة ، وبالسفسطة ، والمماحكة . ولم يبق أمام اليونان فى ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى فى غرب بلاهم ، ويقيموا قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .